مراجعات كتب

Book Reviews

أنس ناصر[1]| Anas Naser

مثقفون سوريون في المنفى
معضلات الثورة وثمن الرحيل

Syrian Intellectuals in Exile
The Dilemmas of Revolution and the Cost of Leaving

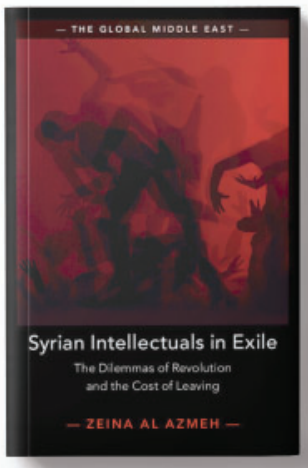

العنوان:

مثقفون سوريون في المنفى: معضلات الثورة وثمن الرحيل

Syrian Intellectuals in Exile: The Dilemmas of Revolution and the Cost of Leaving

المؤلف: زينة العظمة (Zeina Al Azmeh)

اللغة: الإنجليزية

الناشر: Cambridge University Press (2026)

عدد الصفحات: 248

(1) كاتب وباحث فلسطيني- سوري. حاصل على ماجستير في الدراسات الثقافية (معهد الدوحة للدراسات العليا)

Anas.Nasser@arabica.org

موضوع الكتاب وأهميته

يتناول الكتاب مصائر نخب ثقافية سورية بعد الثورة منذ آذار/ مارس 2011، مركزًا على الكيفية التي أعاد بها المنفى صوغ سردياتهم وفاعليتهم السياسية وشعورهم بالمسؤولية الأخلاقية. يظهر المنفى في الكتاب مأزقًا فكريًا ووجوديًا يتجاوز الانتقال الجغرافي، ففيه يكتسب المثقف حرية أوسع في القول، لكنه يخسر في المقابل قربه المكاني من العالم الاجتماعي الذي يظل مرتبطًا به أخلاقيًا. داخل هذا الوضع، تُختبر الالتزامات الثورية في سياق الهزيمة والنزوح، ويتبدّل الدور العام للمثقف في ظل أثر المسافة والشعور بالذنب، واستمرار الحاجة إلى الكلام عن وطن مدمّر، من موقع آمن نسبيًا.

يتحرك الكتاب ضمن مناقشات متقاطعة حول الثورة السورية والمنفى، وعلم الاجتماع الثقافي، وفكر ما بعد الاستعمار (postcolonial thought)، ودراسات الهجرة، ودراسات الصدمة، وسوسيولوجيا المثقفين. ويمتد اهتمامه من مضمون ما قاله المثقفون السوريون عن الثورة إلى أثر الرحيل عن سورية في قدرتهم على الكلام، والتمثيل (representation) والحكم وإنتاج المعنى. من هذه الزاوية، تنقل العظمة مركز الاهتمام من سياسات المعارضة المؤسسية والتاريخ العسكري إلى العمل الثقافي والرمزي (cultural and symbolic) الذي تُروى من خلاله الثورة والخسارة والنزوح. هكذا يقدّم الكتاب دراسة للحياة الفكرية، في ظل انقطاع الأمل السياسي والاقتلاع المكاني، والمسافة الفاصلة بين المثال الثوري والأحداث العنيفة التي أعقبته.

تأتي أهمية الكتاب من تعامله الجاد مع النتائج الفكرية للمنفى. فهو يتتبع الكتّاب والفنانين في كيفية تفاوضهم مع التوتر القائم بين الشعور بالأمان والشعور بالذنب، وبين سرد الشهادة (testimonial narration) على التجربة أو المعاناة وممارسة النقد، وبين التمثيل والاستشراق الذاتي (self Orientalisation)، وبين التضامن مع الشعب والحاجة إلى مسافة نقدية. تمنح هذه الأسئلة الدراسة أهمية تتجاوز الحالة السورية، لأنها تمسّ مشكلات أوسع، مما يواجه مثقفو المجتمعات التي عانت الاستبداد والعنف والهجرة القسرية، ثم وجدت نفسها داخل شروط ظهور غير متكافئة عالميًا (unequal global visibility).

بنية الكتاب ومنهجه

تؤسس الكاتبة دراستها على قراءة قريبة من تجارب مجموعة من المثقفين السوريين في المنفى، مع اهتمام خاص بالمسارات التي ربطت إنتاجهم الثقافي بالثورة والهزيمة والاقتلاع، وإعادة تعريف الدور العام للمثقف. يتقدم الكتاب عبر مستويات متداخلة من السرد والتحليل، منتقلًا بين شهادات اللاجئين، وسياقات الثورة السورية، وأسئلة المسؤولية، وحدود التمثيل، وموقع المثقف حين يصبح بعيدًا من المكان الذي يتكلم عليه، مع بقائه مشدودًا إليه أخلاقيًا وسياسيًا. ولا ترى المؤلفة في المنفى خلفيّةً ظرفيّةً لتجارب المثقفين، بل تجعله شرطًا مؤثرًا في تشكّل خطابهم وموقعهم الأخلاقي والسياسي. فتظهر هنا أهمية التموضع (positionality)، لأن المثقف في المنفى لا يتحدث من خارج الحدث تمامًا، ولا من داخله كما كان قبل الرحيل. إنه يتحرك في منطقة متوترة بين القرب والبعد، وبين الحرية التي يتيحها المنفى والكلفة الأخلاقية التي يفرضها الابتعاد. وداخل هذه المنطقة، يتتبع الكتاب تحولات سرد المعاناة والنقد والحنين والذنب والالتزام الثوري.

يستمد الكتاب قوته من قدرته على وصل التجربة الفردية بالبنية الثقافية الأوسع. فالمثقفون الذين تدرسهم الكاتبة يظهرون فاعلين من داخل حقل ثقافي وسياسي متغير، وتتنازعه الذاكرة الثورية والعنف والمنفى، وشروط الاعتراف في المجال العام العالمي. من هنا، يقترب الكتاب من سوسيولوجيا المثقفين (sociology of intel-lectuals)، والأسئلة التي تطرحها دراسات المنفى حول العلاقة بين الكلام والمكان، وبين إنتاج المعنى والاقتلاع. يوحي عنوان الكتاب بمعالجة واسعة للمثقفين السوريين في المنفى، في حين يتركز البحث فعليًا على كتّاب وفنانين في باريس وبرلين، ممن ينتمون في الغالب إلى أوساط عَلمانية وكوسموبوليتانية. هذا التركيز ليس مأخذًا في ذاته، فهو يمنح الكتاب عمقًا وتحليلًا دقيقًا لحقل ثقافي محدد، ولكنه يجعل منه دراسةً لنموذج فكري ثقافي سوري محدد، لا

خريطة شاملة لكل صور الحياة الفكرية الثقافية السورية بعد عام 2011، ولا سيما في المنافي ودول اللجوء.

تقوم الحجّة الأساسية للكتاب على أن المنفى أعاد تشكيل سرديات المثقفين السوريين واستراتيجياتهم وفاعليتهم السياسية بعد عام 2011، معتمدًا على مقابلات مع عيّنة من كتّاب وفنانين سوريين في فرنسا وألمانيا. لقد أتاحت هذه المنهجية للكاتبة أن تتجاوز الحديث المجرد عن "المثقف" إلى تتبع معضلات ملموسة عاشها أفراد محددون، وتطرح عددًا من الأسئلة: كيف يتحدث المرء عن العنف من موقع آمن نسبيًا؟ كيف يمثّل معاناةً لم يعد قريبًا منها مكانيًا؟ كيف يحافظ على استقلاله الفني داخل مؤسسات ثقافية غربية؟ كيف يُبقي على التزامه الثوري، حين تتحول الثورة من أفق مفتوح إلى تجربة مثقلة بالخسارة والتشظّي؟ تأتي قوة هذا الاختيار المنهجي من قربه من التجربة الحية للمشاركين، فالمقابلات تؤدي وظيفة توثيقية، وتتحول في الوقت نفسه إلى مادة تحليلية تكشف كيف يفكر المثقفون في أنفسهم، وكيف يسوّغون مواقعهم، ويتعاملون مع التوتر بين الأمان الشخصي والمسؤولية الأخلاقية. غير أن هذا العمق المنهجي يرتبط بحدود واضحة، فباريس وبرلين ليستا مكانين للدراسة فحسب، بل فضائين أوروبيين تتشكل فيهما تجربة المنفى، عبر المؤسسات الثقافية وشبكات التمويل، وسياسات الاندماج وفرص الظهور أمام الجمهور الغربي. لذلك، فإن صورة المنفى التي يقدمها الكتاب هي صورة منفى ثقافي أوروبي في المقام الأول، ومنفى يتشكل عبر المِنَح، والإقامات الفنية والترجمة والمهرجانات والمنظمات والجامعات والجمهور الغربي. هذه صورة مهمة، لكنها لا تختصر تجارب المنفى السوري كلها.

من هنا، يبرز سؤال النطاق والتمثيل، فالمثقفون الذين يدرسهم الكتاب هم في الغالب كتّاب وفنانون ينتمون إلى أوساط عَلمانية وكوسموبوليتانية وفاعلة ثقافيًا، ما يمنح التحليل تماسكًا داخليًا، لكنه يجعل مفهوم المثقف أوسع من عينته التجريبية. وتبقى خارجه أو في هامشه أشكالٌ أخرى من الحياة الفكرية السورية: المثقفون الدينيون والصحفيون والفاعلون المدنيون والمنظَّمون سياسيًا، والأكاديميون من خارج المجال الفني والمثقفون النازحون داخليًا، والذين بقوا داخل سورية في ظل الخوف أو الرقابة أو التسويات القسرية. لا يعني ذلك أن الكتاب يخفق في موضوعه، فهو يشير إلى أن الموضوع يحتاج إلى تحديد دقيق، وهو لا يقدم خريطة شاملة للمثقفين السوريين بعد العام 2011، بل ينجز دراسة عميقة لحقل ثقافي سوري في المنفى الأوروبي. تكمن قيمة الكتاب في هذا العمق تحديدًا، وفي قدرته على إظهار تجربة الرحيل وكيفية إعادتها صوغ الصوت والمسافة والسلطة الرمزية (symbolic au-thority)، وإمكان إنتاج المعنى لدى جماعة محددة من الكتّاب والفنانين السوريين (ص 41).

عرض تحليلي لفصول الكتاب

الفصل الأول

خصومات كامنة وتنافسات ناشئة

يضع الفصل الأوّل الأساسَ السوسيولوجي للكتاب، فهو يدرس تشظي الحقل الفكري السوري بعد العام 2011، ويرفض تفسير الانقسامات بين المثقفين، بوصفها خلافات شخصية أو تعبيرًا مباشرًا عن ضعف المعارضة، أو دليلًا على غياب النضج السياسي. تقرأ الكاتبة هذه الانقسامات ضمن شبكة أوسع من العوامل التي تشمل الخلافات الأخلاقية-السياسية، والفوارق بين الأجيال والانقسام بين الداخل والخارج، والهويات الاجتماعية والتنافس على المكانة وبنى التمويل، وآثار الصدمة. تتمثل نقاط القوة في الكتاب بأنه لا يتعامل مع الانقسام، بما هو مشكلة سورية استثنائية، فالحركات الاجتماعية كثيرًا ما تنقسم، والحقول الفكرية ليست فضاءات توافقية خالصة، بل تقوم غالبًا على التنافس والصراع والسعي إلى الاعتراف. لذلك، تظهر الخلافات بين المثقفين السوريين، بوصفها جزءًا من ديناميات حقل فكري مضطرب، وقد وجد نفسه أمام ثورة مفتوحة، ثم أمام حرب، ومنفى، وخسارات متلاحقة.

تبيّن الكاتبة كيفية تحوّل الخلافات السياسية إلى أحكام أخلاقية، فالمواقف من العسكرة والتدخل الخارجي، والإسلام السياسي، والمعارضة المؤسسية، والعلاقة بمن بقوا داخل سورية، لم تُعامل بما هي اختلافات في التقدير أو

الاستراتيجية فحسب، بل أصبحت مؤشرات على الشجاعة أو الخيانة، والراديكالية أو التواطؤ، والأصالة الثورية أو الانفصال عن الثورة. بذلك، صار الحقل الفكري السوري، بعد العام 2011، مجالًا تتداخل فيه اللغة السياسية مع الحكم الأخلاقي، وأصبح فيه الموقف الفكري شكلًا من أشكال التموضع داخل جماعة متصدعة.

تقدّم الكاتبة قراءة مهمة للانقسامات بين الأجيال، فاستنادًا إلى سوسيولوجيا الأجيال، عند مانهايم[2]، تميز بين مثقفين تشكل وعيهم في ظل القومية العربية والتقدمية وصراعات القرن العشرين، وجيل أوسط صاغته المواجهة الطويلة مع الدولة السورية القمعية، وجيل أصغر تشكلت تجربته مباشرة عبر الثورة والحرب والمنفى والتجريب الثقافي. ولا تقف هذه القراءة عند تقسيم المثقفين بحسب الجيل، بل تشرح كيفية صنع التجارب التاريخية المختلفة حساسيات سياسية وأخلاقية متباينة، وتؤثر في طريقة فهم الثورة والتزامها. أما الإسهام الأهم في هذا الفصل من الكتاب، فيتعلق بتحليل التنافس المادي والرمزي. لقد خلق المنفى اعتمادًا جديدًا على المِنح والزمالات والمنظمات غير الحكومية، والمؤسسات الثقافية والناشرين والمهرجانات، وشبكات الدعم في البلدان المضيفة. ولم تكن هذه البنى أدوات مساعدة للإنتاج الثقافي فحسب، فقد ساهمت أيضًا في تشكيل الشكوك والتنافسات وأشكال التموضع الذاتي. في موازاة ذلك، تنافس المثقفون على المكانة الرمزية (symbolic status)، التي تتمحور حول من له حق الكلام باسم الثورة، ومن له شرعية تمثيل الألم، أو من يحق له أن ينتقد، ومن بقي قريبًا بما يكفي من التجربة السورية.

يبرز هنا مفهوم رأس مال الاضطهاد (persecution capital)، وهو من المفاهيم المهمة في الكتاب، ويشير إلى أن التعرض للسجن أو الملاحقة أو التضحية، أو القرب من الألم، يمكنه أن يتحول إلى مصدر للمكانة والشرعية داخل مجالٍ شكّلَه العنف والخسارة السياسية. بهذا المعنى، لا ينتج الاعتراف من الامتياز الثقافي أو الأكاديمي وحده، ولكنه قد ينبع أيضًا من تاريخ المعاناة ذاته. مع ذلك، تظلّ هذه الشرعية ملتبسة، لأنها قد تتحول إلى معيار للمفاضلة الأخلاقية بين المثقفين، أو أداة تحدد من يملك حق الكلام ومن يُستبعد منه. تكمن أهمية هذا التحليل في أنه يتجنب الصورة الرومانسية للمثقف في المنفى. فالمنفى هنا مجال تتقاطع فيه الحرية مع الاعتماد، والاعتراف مع القلق، والنجاة الفردية مع الشعور بالذنب. إن خطاب المثقف في المنفى يتشكل من القناعة السياسية، وشروط البقاء، والحاجة إلى الاعتراف، والجرح الذاتي، والرغبة في البقاء مفهومًا ومقبولًا أخلاقيًا داخل وسط متشظٍّ. تطرح الكاتبة هنا سؤالًا نقديًا بشأن مدى قابلية هذه النتائج للتعميم، فالتحليل يبدو شديد الإقناع حين يتعلق بكتّاب وفنانين يتحركون داخل دوائر ثقافية أوروبية، ولكنه يصبح أقل مباشرةً حين نفكر في تشكيلات فكرية سورية أخرى، من مثل المثقفين المحليين والمفكرين الدينيين والصحفيين والأكاديميين من خارج الحقل الفني، أو مثقفين عاشوا نزوحًا داخليًا أو بقوا في سورية.

الفصل الثاني

من الوعي المزدوج إلى النظرة المزدوجة

تنقل الكاتبة التحليل من التنافسات، داخل الحقل الفكري السوري، إلى معضلات التمثيل أمام الخارج. وتدرس كيفية حضور الكتّاب والفنانين السوريون في المنفى أمام الجمهور الغربي، والمؤسسات الثقافية والممولين والمجتمعات المضيفة. وتدور المسألة الأساسية حول صعوبة الحديث عن سورية، من غير الوقوع في صور نمطية جاهزة عن الضحية، واللاجئ والشرق المعذّب، أو في سرديات تُكيّف الألم السوري مع توقعات الجمهور والمؤسسات الثقافية في الغرب. تعالج الكاتبة هذه المشكلة بحذر، فلا تختزلها في اتهام مباشر للاستشراق الغربي، ولا تبرئ المؤسسات الثقافية من دورها في تشكيل ما يمكن قوله عن سورية. يظهر المثقف السوري هنا داخل علاقة معقدة بجمهور ومؤسسات تمنحه فرصة الظهور، ولكنها قد تدفعه في الوقت نفسه إلى إعادة إنتاج سرديات مألوفة عن الألم والنزوح والاختلاف. من هنا، يصبح خطر الاستشراق الذاتي جزءًا من معضلة أوسع تتمثل بالسؤال: كيف يمكن الفنان

(2) كارل مانهايم (Karl Mannheim، 1893-1947): عالم اجتماع وفيلسوف مجري-ألماني، ويُعدّ المؤسس الفعلي لعلم اجتماع المعرفة الكلاسيكي.

أو الكاتب أن يحافظ على استقلاله، وأن يتكلم على العنف السوري بصدق، من غير أن يتحول إلى ممثل لصورة جاهزة ينتظرها الآخرون منه؟

يتجسّد الإسهام النظري الأهم، في هذا الفصل، في الانتقال من مفهوم الوعي المزدوج (double con-sciousness) إلى مفهوم النظرة المزدوجة (dual gaze). وتنطلق الكاتبة من تصور ويليام إدوارد بورغاردت دو بوا (W. E. B. Du Bois)[3] للوعي المزدوج، فالذات ترى نفسها عبر عينها وعبر عين الآخر المهيمن في الوقت نفسه، لكنها تضيف إلى ذلك بعدًا آخر يلائم التجربة السورية في المنفى. فالمثقفون السوريون لا ينشغلون بكيفية نظر الغرب إليهم فحسب، بل يوجهون نظرهم أيضًا إلى الغرب، ليحاكموا سياساته ومؤسساته وإعلامه وخطابه الإنساني وإخفاقاته الأخلاقية. لهذا، تصف الكاتبة هذا التحول بأنه انتقال من سياسة أن تكون مرئيًا إلى سياسة الإدراك والحكم (politics of perceiving) (ص 109). هكذا، تُخرج المؤلفة المثقف السوري من موقع المتلقي لنظرة الآخرين، وتضعه في موقع الفاعل المعرفي الذي يقرأ العالم ويحاكمه. فالمعضلة السورية، وفق هذا المعنى، ليست مادة تُعرض أمام الجمهور الغربي فحسب، بل نقطة انطلاق لفهم الغرب نفسه، ولا سيما حدود كونيته وانتقائية إنسانيته، والفجوة بين خطابه عن الحقوق وسلوكه السياسي الفعلي. من ثم، يغدو المنفى مجالًا لإنتاج معرفة نقدية عن العالم، مع كونه مساحة لعرض المعاناة.

تتصل هذه المسألة بمناقشة مشكلات الاندماج، فكثير من المشاركين لا يختبرون الاندماج في المجتمعات المضيفة كتجربة احتواء بسيطة، وإنما كعملية تحمل في داخلها توقعات ضمنية عن النقص، والتصحيح والتأقلم مع معايير يحددها الآخر. تبدو المقارنة بين فرنسا وألمانيا مفيدة في هذا السياق، ففي فرنسا قد يؤدي ضعف الدعم المؤسسي إلى شعور أعمق بالاغتراب، في حين قد يقترن الدعم الأقوى في ألمانيا بتدخل أكبر في حياة اللاجئ وصورته وسلوكه. في الحالتين، يتعامل المثقف السوري مع المجتمع المضيف من موقع نقدي، فاحصًا الافتراضات السياسية والأخلاقية التي تحكم خطاب الاندماج. على الرغم من أهمية مفهوم "النظرة المزدوجة"، يبقى نطاقه مرتبطًا إلى حد كبير بطبيعة العيّنة التي يدرسها الكتاب. فالمفهوم يبدو مقنعًا عندما يتعلق بمثقفين كوسموبوليتانيين يمتلكون اللغة، والموارد الثقافية والقدرة على مخاطبة الجمهور الغربي، لكنه قد يعمل بصورة مختلفة لدى أشخاص آخرين في المنفى، ممن تصوغ حياتهم هشاشة العمل، وبيروقراطية اللجوء، والخوف القانوني والتهميش الاجتماعي، أكثر مما يشكلها الإنتاج الفني أو التداول الثقافي. لذلك، يظل هذا الفصل أقوى حين نقرأه ضمن حدوده المتصلة بتجربة كتّاب وفنانين قادرين على تحويل المنفى إلى موقع للنظر النقدي والحكم على العالم.

الفصل الثالث

بين البينية النقدية والانغراس الراديكالي

تتناول الكاتبة علاقة المثقفين السوريين بـ "الشعب"، وتدرس واحدة من المعضلات القديمة والمتجددة في الحياة الفكرية، وتطرح السؤال: هل يقود المثقف الجمهور، أم ينتقده أم يمثله أم يرافقه أم يذوب فيه؟ في السياق السوري بعد عام 2011، اتخذ هذا السؤال حدة خاصة، فقد خرجت الانتفاضة من الشارع والمبادرات المحلية، لا من النخب الفكرية أو مؤسسات المعارضة التقليدية. لذلك، شعر كثير من المثقفين بأن عليهم إعادة النظر في علاقتهم بالناس الذين تحمّلوا الخطر المباشر، ودفعوا كلفة الاحتجاج اعتقالًا وموتًا. تقرأ الكاتبة هذه المسألة من خلال التوتر بين المساواة والهرمية، فالدور التقليدي للمثقف يقوم على قدر من التمايز، ما يظهر في القدرة على التحليل وصوغ المفاهيم والتدخل في المناقشات العامة. غير أن الثورة وضعت المثقفين أمام ضغط أخلاقي معاكس، ما دفعهم إلى التخلي عن أي موقع إرشادي أو تعليمي، والاقتراب أكثر من الناس وتجربتهم. في هذا السياق، أصبح نموذج المثقف التنويري، أي المثقف الذي يشرح ويقود ويقترح، موضعَ ريبة في لحظة ثورية فضّلت المسار الأفقي، ورفضت النخبوية،

(3) ويليام إدوارد بورغاردت دو بوا (W. E. B. Du Bois، 1868-1963): عالم اجتماع أميركي، وهو أول أفريقي أميركي يحصل على الدكتوراه من هارفارد. أهم كتبه أرواح الشعب الأسود *The Souls of Black Folk* (1903)، وقد حلل فيه معاناة السود ومفهوم الوعي المزدوج.

وتخوّفت من إعادة إنتاج أشكال القيادة القديمة.

يظهر هنا مفهوم "الانغراس الراديكالي (radical em-beddedness)"، وهو من المفاهيم الأساسية في الكتاب، ويشير إلى ميل المثقف إلى التماهي العميق مع الجمهور الثوري والتحدث إليه ومن داخله، بدلًا من النزعة الفوقية. لهذا الميل قوة أخلاقية واضحة، فهو يعترف بفاعلية الناس العاديين، وبأنهم لم يكونوا مادة تنتظر من يفسرها أو يقودها، ولكنه يدرك أيضًا حدوده، فحين يقترب المثقف إلى حد الانغراس في الجماعة، قد يفقد المسافة التي يحتاجها النقد ويتردد في طرح الأسئلة الصعبة، خشية أن يُفهم نقده كنوع من التخلي أو الخيانة. من هنا، تأتي أهمية مفهوم البينية النقدية، فالمثقف يحتاج إلى موقع وسيط، ليكون قريبًا بما يكفي من فهم التجربة والتأثر بها، وبعيدًا بما يكفي منها لكي يحللها وينتقدها. غير أن المنفى يعقّد هذا الموقف، فالمثقف الذي غادر سورية يشعر غالبًا بأن المسافة المكانية تضعف شرعيته، فيعوّض هذا الضعف عبر التماهي الأخلاقي الكبير مع من بقوا في الداخل أو مع "الشعب" عامة. النتيجة هي أن البعد من التجربة الواقعية قد يُنتج أحيانًا ترددًا أكبر في نقدها، لا جرأة أكبر على مساءلتها.

ترى الكاتبة أن رفض الهرمية والقيادة أضعَفَ قدرة المثقفين على التأثير في الخيال السياسي. وتلاحظ أن بعض المثقفين اتخذوا وضعية "التابع"، وانشغلوا بالتعبير عن خيار الشعب وتمثيله بلغة وجدانية، أكثر من انشغالهم بالاقتراح أو التوجيه أو بناء رؤية سياسية مشتركة (ص 140). هكذا، بقي كثير من المثقفين قريبين وجدانيًا من الثورة، لكنهم ترددوا في تقديم تدخلات مؤسسية أو تنظيمية، وغالبًا ما اتخذ عملهم طابعًا تعبيريًا أو تضامنيًا أو سرديًا، أكثر من كونه عملًا مؤثرًا في تشكيل المسار السياسي. لا يعني ذلك أن الكاتبة تدعو إلى عودة المثقف المتعالي أو الوصيّ على المجتمع، فقوة الفصل تكمن في أنه يمسك بالتوتر من طرفيه. إن الانغراس في تجربة الناس ضروري لتجنب النخبوية والاحتقار الثقافي، ولكن النقد يحتاج أيضًا إلى مسافة. ومن دون هذه المسافة قد يتحول "الشعب" إلى صورة أخلاقية موحدة، مع أن الواقع أكثر تعددًا وتعقيدًا. فقد ضمت الثورة فئات وطبقات ومناطق وحساسيات سياسية ودينية، وتجارب مختلفة من العنف. لذلك، فإن التعامل مع "الشعب" بوصفه كتلة واحدة قد يستبدل تجريدًا تصوريًا بتجريد تصوري آخر.

تتضح هذه المسألة أيضًا في مناقشة العداء للمثقفين والشعبوية الثقافية. فقد رفعت الثورة من شأن الناس العاديين وخبراتهم، وهذا جزء مهمّ من معناها الأخلاقي. غير أن رفع شأن الناس لا يلغي حاجة التجربة الثورية إلى تفكير نقدي، ومساءلة البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أثرت في مسارها. لهذا، تبدو معالجة الكاتبة لـ "الثقافوية" متوازنة. فهي تنتبه إلى خطر التفسيرات التي تلوم المجتمع السوري أو الثقافة العربية أو الإسلام على الاستبداد والعنف، لما تحمله من نزعة اختزالية وربما استشراقية. لكنها في الوقت نفسه لا ترفض النقد الداخلي، حين يتناول عادات سلطوية أو تخيلات طائفية، أو أنماطًا سياسية واجتماعية تحتاج إلى تفكيك. يمثل هذا الفصل جانبًا مهمًا من الكتاب، لأنه يعالج أسئلة حاسمة في التجربة السورية، من قبيل كيف يمكن المثقف أن يكون وفيًا للثورة، من دون أن يتخلى عن وظيفة النقد؟ وكيف يمكنه أن يحترم تضحيات الناس، من غير أن يحوّلهم إلى مرجعية أخلاقية لا تخضع للمساءلة؟ تلتقط المؤلفة هذه المفارقة، حين تشير إلى أن المنفى أتاح للمثقفين حرية أوسع في التعبير، لكنه قوّض في الوقت نفسه مصداقيتهم وتأثيرهم في الداخل. من هنا لا يكون "ثمن الرحيل" فقدان القرب من سورية فحسب (ص 182)، بل تراجع الثقة بقدرة المثقف على النقد والاقتراح والتنظيم، وتخيّل بدائل سياسية.

الفصل الرابع

الحق في المعنى

تنتقل الكاتبة إلى تأمّل أوسع في اللغة والفاعلية والصدمة والرهانات الوجودية للثورة، وترى أن الثورة، في نظر كثير من المثقفين السوريين، كانت محاولة لاستعادة المعنى، بخاصة معنى الكلمات والسياسة والكرامة والقدرة على الفعل والحياة نفسها. وتنطلق هنا من فكرة أن الاستبداد يسيطر على المجال السياسي، ويُفسد اللغة

أيضًا. ففي ظل نظام الأسد، فقدت كلمات، من مثل الأمن والمواطنة والسيادة والاشتراكية والانتماء الوطني، كثيرًا من معانيها، أو أصبحت جزءًا من لغة السلطة نفسها. لذلك، بدت الثورة، في نظر عدد من المثقفين، فرصةً لتحرير الكلام العام من الخوف والدعاية والرقابة، واستعادة السياسة من اللغة التي صادرها النظام. من هنا، تُقرأ الانتفاضة كلحظة سياسية ولغوية في آن واحد، وقد حاول السوريون فيها أن يجعلوا الكلام ممكنًا، بعد عقود من مصادرة المعنى والتحكّم فيه.

تطوّر الكاتبة هذه الفكرة، عبر الدلالات المتعددة لـ "المعنى" في العربية، من حيث المعنى اللغوي والمعنى الوجودي والمعنى القيمي والمعنى الفكري. من خلال هذا الاشتغال، تربط المؤلفة بين استعادة اللغة واستعادة الفاعلية الإنسانية. فالثورة تصبح ذات معنى، لأنها تفتح إمكانًا جديدًا في مواجهة خطاب نظام الأسد عن الديمومة والانغلاق وانعدام البدائل. في هذا السياق، تظهر الكرامة والحرية كتجارب تجعل الحياة مفهومة وقابلة لأن تُعاش. لكن هذا المعنى يتعرض لاحقًا للانكسار، فعوامل العنف والهزيمة والمنفى والتخلي الدولي جعلت إنتاج المعنى أكثر صعوبة. وقد واجه المثقفون الذين رأوا في الثورة أفقًا للتحرر السؤال الصعب الآتي: هل يمكن للمعنى أن يصمد أمام الموت الجماعي، والنزوح الهائل، وتحوّل البشر إلى كائنات تبحث عن النجاة فحسب؟ لذلك، ترصد الكاتبة انتقال المثقفين، من الإيمان بأن الثورة أعادت للغة والسياسة معناهما إلى الإحساس بأن هذا المعنى تكسّر أمام العنف والتخلي الدولي. فقد رأى العالم الألم السوري ومأساته، وتعاطف معه في أحايين كثيرة، لكن ذلك بقي محدود الأثر، ولم يتحول إلى حماية أو عدالة أو اعتراف سياسي فعلي.

في هذا السياق، تستعين الكاتبة بمفهوم الحياة العارية (bare life)، أي المختزلة في محاولة البقاء على قيد الحياة، بعد أن يفقد الإنسان القدرة على الفعل السياسي أو انتزاع اعتراف بمعنى تجربته. فالمشكلة لا تكمن في حجم المعاناة وحدها، بل في أن هذه المعاناة بقيت غالبًا من دون استجابة توازيها، أي من دون حماية كافية أو عدالة أو اعتذار أو جبر للضرر. من هنا يظهر مفهوم التعاطف غير المنتج (unproductive compassion)، أي التعاطف الذي يرى الألم ويقرّ به، لكنه يبقى عاجزًا عن التحول إلى فعل أو مسؤولية. من هنا، تأتي أهمية مفهوم الحق في المعنى، ولا ينحصر هذا الحقّ في طلب النجاة أو البقاء، بل يشير إلى حاجة السوريين إلى أن يُحسَب كلامهم ومعاناتهم وموتهم وتضحياتهم وتطلعاتهم داخل أفق أخلاقي وسياسي مفهوم. فالحق في المعنى هو رفض اختزال الحياة في مشهد أو رقم أو شفقة، ورفض تحويل التجربة السورية إلى مادة عابرة في خطاب إنساني لا يغيّر شيئًا في الواقع. يمثل هذا المفهوم إسهامًا مهمًا، لأنه يجمع بين اللغة والصدمة والمنفى واللامساواة العالمية.

يبين الكتاب أن جزءًا من إخفاقات الثورة السورية مسّ أيضًا القدرة على تحويل المعاناة إلى مطالب مسموعة ومعترف بها. لقد روى المثقفون السوريون الألم، ووثّقوا الفظائع وخاطبوا العالم، لكن هذه الأفعال لم تُنتج استجابة سياسية كافية. على الرغم من أهمية هذا الطرح، فإنه يحتاج إلى أن يميّز بين معنى الثورة لدى المثقفين، ومعانيها المتعددة لدى الفاعلين الآخرين. فوصف الثورة، بما هي صراع على المعنى، يمنحها عمقًا فلسفيًا، لكنه قد يجعلها أكثر تماسكًا مما كانت عليه في الواقع. فالانتفاضة السورية حملت دوافع محلية ومادية وسياسية ودينية واقتصادية ووجودية متعددة، ولم تكن تجربة واحدة موحدة. لذلك، يكون مفهوم "المعنى" أكثر إقناعًا، حين نقرأه كإطار تأويلي استخدمه المثقفون لفهم الثورة، لا كتلخيص شامل لكل ما حرّك السوريين في تلك اللحظة.

خاتمة الكتاب

تجمع خاتمة الكتاب خيوطه الرئيسة حول الصدمة الثقافية (cultural trauma)، والانغراس الراديكالي، وثمن الرحيل، والانتقال من الخضوع لنظرة الآخر إلى سياسة الإدراك والحكم. المقصود بهذا الانتقال أن المثقف السوري في المنفى ينتقل من سؤال الصورة التي يصنعها الغرب عنه، إلى مساءلة موقعه داخل الوسط السياسي والثقافي الغربي، وإلى الحكم على خطاب هذا الوسط ومؤسساته ومواقفه من المأساة السورية. تعود الكاتبة إلى مفهوم الصدمة الثقافية، لتبيّن أن المثقفين السوريين في

المنفى ساهموا في تحويل المعاناة إلى لغة عامة وذاكرة وفن وتحليل. غير أن هذا الدور وضعهم أمام توتر صعب، فرواية الألم تحتاج إلى قرب وجداني من الضحايا، في حين يحتاج النقد إلى مسافة. في الحالة السورية، ازداد هذا التوتر لأن العنف لم يكن حدثًا منتهيًا يمكن تأمله بعد وقوعه، بل كارثة مستمرة حاول المثقفون فهمها وهي تتكشف أمامهم.

يحمل الكتاب بعدًا زمنيًا مهمًا، وقد كُتب في ضوء سقوط نظام الأسد، ما منعه من البقاء داخل أفق الهزيمة، لكنه لا يحوّل سقوط النظام إلى نهاية مكتملة للثورة. فالكاتبة تراه بداية طور جديد مفتوح على احتمالات متعارضة، ومنها استعادة بعض معاني الثورة أو تبدلها أو خذلانها مرة أخرى. بذلك، تقف الخاتمة عند عتبة زمن المنفى والخسارة وانكسار الأمل الثوري، وزمن سوري جديد لم تتضح بعد ملامحه السياسية والفكرية. يطوّر الكتاب مجموعة من المفاهيم المفيدة لفهم العمل الفكري في المنفى، ومنها رأس مال الاضطهاد والنظرة المزدوجة والانغراس الراديكالي والحق في المعنى وثمن الرحيل. تعمل هذه المفاهيم، في سياق الكتاب، كأدوات تحليلية تربط التجربة السورية بمناقشات أوسع في علم الاجتماع الثقافي ودراسات الهجرة وفكر ما بعد الاستعمار ودراسات الصّدمة. يتبين هنا أن الكاتبة لا تبني إطارها النظري على المراجع الغربية وحدها، فهي تستحضر أيضًا أصواتًا من المناقشات العربية، ومنها إحالتها على عزمي بشارة في نقد الموضوعية المتوازنة (balanced objectivity)، أي ادعاء الحياد الذي قد يساوي، في سياق عنف غير متكافئ، بين الضحية والجلاد (ص 86-87). تكشف هذه الإشارة تعامل الكاتبة مع الإنتاج الفكري العربي المعاصر كجزء من المناقشات النظرية، لا كمادّة سياقية فحسب.

يكتسب الكتاب أهميته من تركيزه على كتّاب وفنانين في باريس وبرلين، لكنه يضيق حين يوحي عنوانه أو بعض صياغاته بأنه يتناول المثقفين السوريين في المنفى عمومًا. فقد كان الحقل الفكري السوري، بعد العام 2011، أوسع من هذا الوسط، وقد شمل صحفيين وأكاديميين ومنظّمين سياسيً ومثقفين دينيين وفاعلين مدنيين، ومثقفين في تركيا ولبنان والأردن والخليج وأميركا الشمالية ودول أوروبية أخرى وداخل سورية نفسها. تبقى تجارب النازحين داخليًا، أو الذين عاشوا تحت الرقابة والخوف والصمت القسري، في هامش التحليل، وهذه الملاحظة تتصل بسؤال فئة "المثقف" نفسها. تعتمد الكاتبة تعريفًا واسعًا للعمل الفكري، ما يشمل الكتابة والفن والتأمل العام وإنتاج المعنى، وهذا خيار مفيد لأنه يحرر المفهوم من الحصر الأكاديمي أو المهني. غير أن المادة التي اشتغل عليها الكتاب تميل إلى ربط المثقف بوسط علماني وكوسموبوليتاني وفني، وفاعل في الدوائر الثقافية الأوروبية. لذلك، يبقى السؤال الآتي حاضرًا: إلى أيّ مدى استطاعت مفاهيم الكتاب تفسير أشكال أخرى من العمل الفكري والثقافي السوري، خارج هذا الوسط وهاتين المدينتين؟

في مستوى الإطار النظري، الكتاب غني بأدبيات من حقول معرفية مختلفة، ولا سيما علم الاجتماع الثقافي وفكر ما بعد الاستعمار ونظرية الحركات الاجتماعية، ودراسات الهجرة والصدمة. يمنح هذا الاتساع الدراسةَ عمقًا واضحًا، ولكنه يجعل بعض المقاطع، ولا سيما في المقدمة، قريبة من الاستطراد النظري أو التاريخي. بينما يبدو الكتاب أكثر قوة في طرحه حين ترتبط مفاهيمه مباشرة بالمقابلات والمعضلات التي عاشها المشاركون. وتبقى مسألة "المعنى" في حاجة إلى شيء من الحذر، فالكتاب يقدّم قراءة مهمة للثورة، كتجربة لاستعادة اللغة والكرامة والفاعلية، لكنه يكون أكثر إقناعًا حين التعامل مع هذه القراءة كطريقة فهم عند المثقفين الذين تدرسهم الكاتبة، لا كخلاصة نهائية لمعنى الثورة السورية كلّها. فقد حملت الانتفاضة (الثورة) دوافع اجتماعية ومحلية واقتصادية ودينية وسياسية كثيرة، وكان فاعلوها أكثر تنوعًا من أي إطار فلسفي أو فكري عام واحد، وإنْ كانت الكاتبة قد أقرّت منذ البداية أثر نطاق العينة المكاني والفكري في حدود دراستها. ولكن لا تقلل هذه الحدود من قيمة الكتاب، بل تحدد موقعه بدقة. لقد قدم الكتاب مفاهيم وأدوات من شأنها إثارة مناقشات كثيرة، حول مثقفين آخرين ممن بقوا داخل سورية أو نزحوا داخلها، أو عملوا في الإعلام والسياسة والتعليم والنشاط المدني، أو عاشوا في منافي إقليمية بعيدة من المؤسسات الثقافية الأوروبية. إن من شأن الدراسات التي يمثلها الكتاب أن تختبر مدى اتساع المفاهيم التي جاءت في سياقه، وأن تضع "ثمن الرحيل" إلى جانب "ثمن البقاء". لقد نجحت الكاتبة في رسم صورة معقّدة للمثقف السوري في

المنفى، فهو شخصية تقف بين الذاكرة والذنب، وبين النقد والتمثيل، وبين الحاجة إلى رواية المأساة السورية والرغبة في تجاوز موقع الضحية. من هنا أيضًا، تنبع أهمية الكتاب، فهو يمنح موضوعاته وضوحًا تحليليًا وثقلًا أخلاقيًا وعمقًا نقديًا.